رثاء أبي العلاء لأمه (تحليل مقاطع من قصيدته الميمية)

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

***خلاصة*—هذا الموضوع يتناول تحليلا أدبيا لمقاطع من قصيدة أبي العلاء الميمية في رثاء والدته.**

الكلمات المفتاحية: أبو العلاء، الشام، الرثاء، معرة النعمان، المراثي.

I. *المقدمة*

يتناول أبو العلاء رثاءه لوالدته في لوحات متعددة تعبر عن عمق فكره وتدبره، وتتنوع الشخوص أبطال هذه اللوحات ما بين الحمامة التي تبكي أخاها، والأسد القوي الذي لا يغفل عنه الدهر والحية القوية التي يصيبها داء الفناء وفوارس قبائل عامر الأشداء.

II. موضوع المقالة

يعبر أبو العلاء في لوحات متعددة تعبر عن عمق فكره وتدبره، وتتنوع الشخوص أبطال هذه اللوحات ما بين الحمامة التي تبكي أخاها، والأسد القوي الذي لا يغفل عنه الدهر والحية القوية التي يصيبها داء الفناء وفوارس قبائل عامر الأشداء.

وأعتقد أن الشاعر إنما يصّبر نفسه بذكر الحمامة التي أصيبت بمثل مصابه، بذكر الأشياء التي أوتيت من القوة على الاحتمال فوق ما أوتي، لكن الأيام لها أسهمها والليالي لها قوسها التي ترمي عنها، فلا مفر إذن من الخضوع لحكمها والرضا بقضائها في نهاية المطاف. يقول أبو العلاء:

ألا نَبِّهْنَنِي قَينَاتِ بَثٍّ بَشِمْنَ غَضًا فَمِلْنَ إلى بَشَامِ

وحَمَاءَ العِلاطِ يَضِيقُ فُوهَا بِمَا في الصَّدْرِ من صِفَةِ الغَرَامِ

تَدَاعَى مُصْعِدًا في الجِيدِ وَجْدٌ فَغَالَ الطَّوقَ منها بانْفِصَامِ

أشَاعَتْ قِيلَهَا وَبَكَتْ أخَاهَا فَأضْحَتْ وَهْيَ خَنْسَاءُ الحَمَامِ

شَجَتْكَ بِظَاهِرٍ كَقَرِيضِ لَيلَى وبَاطِنُهُ عَوِيصُ أَبِي حِزَامِ

يخاطب الشاعر الحمامات التي ملَّت الوقوف على شجر الغضا وهي تبكي فانتقلت إلى شجر البشام، ربما باحثة عمن تبكي عليه لعله يأتي!! يخاطبها الشاعر أن تنبهه، لكن إلى أي شيء تنبهه تلك الحمامات؟ ربما إلى البكاء؟! لكن الشاعر لم ينس أمه لحظة حتى يحتاج إلى تنبيه، ربما نبهته إذن بحالها وبكائها إلى أن هناك مصيبة كمصيبته وربما فاقت مصيبته قسوة بالنسبة لها، فكل مخلوق مشغول بهمه عمن سواه.

وينتقل الشاعر من خطاب جمع الحمامات إلى الإخبار عن إحداها، فيذكر أنها من كثرة ما بكت أخاها أضحت خنساء الحمام، وقد شبهها بالخنساء بنت عمرو بن الشريد، الشاعرة المخضرمة التي بكت أخاها صخرا في جاهليتها بكاء مرا موجعا.

وتزعم العرب أن الحمام عندما يهدل إنما يبكي على فرخ حمام يدعى الهديل، وهو فرخ هلك على زمن نوح عليه السلام. وإذا كانت هذه الحمامة تبكي على الهديل، وتنتقل من شجر الغضا إلى شجر البشام، ربما تمني نفسها بعودته أو لقائه، فإن الشاعر ينقلنا إلى مأساته الخاصة به، وهي متى يلاقي أمه؟ "حتى يقوم الهامدون من الرجام" يسأل وتأتيه الإجابة من مجهول؛ لأنها الإجابة الوحيدة التي سوف ينطقها أي لسان عندما يسأله مثل هذا السؤال، فهي بدهية يدركها كل مؤمن بالبعث والنشور:

سَأَلْتُ مَتَى اللِّقَاءُ فقِيلَ حَتَّى يَقُومَ الهَامِدُونَ مِنَ الرِّجَامِ

ولو حَدُّوا الفِرَاقَ بِعُمْرِ نَسْرٍ طَفِقْتُ أَعُدُّ أَعْمَارَ السَّمَامِ

فَلَيتَ أذِينَ يَومِ الحَشْرِ نَادَى فَأَجْهَشَتِ الرِّمَامُ إلى الرِّمَامِ

ونَحنُ السَّفْرُ في عُمُرٍ كَمَرْتٍ تَصَافَنَ أهْلَهُ جُرَعَ الحِمَامِ

فَصَرَّفْنِي فَغَيَّرَنِي زَمَانٌ سَيُعْقِبُنِي بِحَذْفٍ وادِّغَامِ

والشاعر يرى أن هذا الأمد الطويل لفراق أمه والذي يحده الناس بعمر النسر ـ حيث يعتقدون أنه يعيش مئات السنين ـ ما هو في نظره إلا أمد قصير يشبه أعمار طيور السمام قصيرة العمر، ويتمنى أن ينادي مؤذن يوم الحشر بإيذان الفناء الذي يتبعه إسراع الرمام البالية إلى بعضها حتى تستوي الخلائق من جديد فيرى أمه مرة أخرى. ويؤكد أبو العلاء تلك الحقيقة وهي أن رحلة الحياة قصيرة جدا باستحضار معنى آخر يضاف إلى المعاني السابقة، وهو أننا مسافرون في أعمارنا إلى أن نلقى آجالنا مثلما يسافر قوم في فلاة يتقاسمون فيها أنصبتهم من الماء بالسوية لا يزيد أحدهم عن الآخر وهكذا الحياة القصيرة، كل إنسان يأخذ منها نصيبه لا يزيد عما قدّر له.

ثم يتحدث عن معاملة الزمان له، ونلمس لديه رهبة خاصة من هذا الزمان، تنقبض لها ذاته، ويتحير فكره "ولعل المعري أبرز الشعراء المكفوفين ممن خشي الزمن وتأمله واهتم به، وأسبغ عليه من الصفات ما لم يفعل شاعر كفيف آخر(١)". فقد صرَّفه هذا الزمان فغيّر حاله إلى ما لا يحب، ولسوف يظل يتعقبه بالحذف حينًا والادّغام حينًا آخر، وكأنه مجرد حروف يتلاعب بها فيحذف منها ويدغم كيف شاء.

(١)شعر المكفوفين في العصر العباسي – د. عدنان عبيد العلي (دار أسامة للنشر والتوزيع – عمان – الأردن- ١٩٩٩م) ص ٢٩٥.